التلميذ الناشئ والشيخ الحكيم

الأخ عصام العطار

غنيٌّ بالمال فقيرٌ من المروءة

قال التلميذُ الناشئُ لشيخهِ الحكيم :

– إنّي لأَعْجَبُ لِفلان .. كيفَ يقبضُ يدَه عن الخيرِ كأفقرِ الفقراءِ ، وقد آتاه اللّهُ من الكنوزِ ما يجعلُه من أثرى الأثرياء ؟!

قال الشيخُ الحكيم :

– لا تعجبْ يا بنيّ ، فقد يكونُ الإنسانُ غنيّاً بالمالِ من المرُوءة .. ألَمْ تقرأْ من قبلُ قولَ المتنبيّ :

وَرُبَّ مـــــالٍ[1] فقـــــيرٍ مِـــــنْ مُروءَتِـــــه لم يُثْـــرِ مِنْهـــا كمـــا أَثْـــرى مِـــنَ العَـــدَمِ

---

(1) أي صاحب مال .

أسوأ من العبد الصريح!

قال التلميذُ الناشئُ لشيخهِ الحكيم :

– هل رأيتَ أسوأَ من فلان ، الذي تحوّلَ على الزمنِ عبداً صريحاً للطاغوت ، وطالما تَغَنَّى بالحريّةِ والكرامةِ والتمرّدِ على الطاغوت ؟!

قال الشيخُ الحكيم :

– أسوأُ منه فلانٌ الذي تحوّلَ هو الآخرُ عبداً للطاغوتِ كَتَحوُّلِهِ أو أشدّ .. ولكنّه راح يُفَلْسِفُ واقعَه الجديد ، ويلتمسُ له المبرّرات الكاذبة ، ويُلْبِسُه ثوباً زائفاً من القناعة والمصلحة .. فأضاف إلى حقارةِ العبوديّةِ رذيلةَ الازدواجيّةِ والمخادعةِ والكذب

ما أحقرَ هذه الأنفُس !

قال التلميذُ الناشئُ لشيخهِ الحكيم :

– ما أعظمَ هذه الدنيا في أنفُسِ بعضِ الناس! .. يعبدونها من دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويكفرونَ من أجلِها بالحقّ والواجب ، ويدوسونَ في سبيلها الكرامةَ والوفاءَ وكلَّ القِيَم

قال الشيخُ الحكيم :

– بل ما أحقرَ هذه الأَنْفُسَ التي تَعْظُمُ فيها الدنيا إلى هذا الحدِّ ، وهي لا تَعْدِلُ عندَ اللهِ جَناحَ بعوضة!

ماذا سيقول التاريخ ؟!

قال رجلٌ في مجلسِ الشيخِ الحكيم :

– ماذا سيقولُ التاريخُ يا تُرى في الثناءِ على فلانٍ من الحكّامِ وقد أمسكَ بزمامِ السلطةِ في شعبهِ العريقِ هذا الزمنَ الطويل ؟

قال رجلٌ آخرُ في مجلسِ الشيخ :

– بل ماذا سيقولُ التاريخُ في هجاءِ هذا الشعبِ العريقِ الذي أمسكَ بزمامِ السلطةِ فيهِ مثلُ هذا الحاكم ؟

فقال الشيخُ الحكيمُ وقد تَوَجَّهَتْ إليه الأنظار :

– إنّ التاريخَ سيسكتُ على كلِّ حالٍ بعدَ زمنٍ يَقْصُرُ أو يطول ، وسينقطعُ ثناؤه وهجاؤه على السواء ، ولن ينفعَ الإنسانَ أو يضرَّه إلاّ ما سيلقى به اللّهَ عزَّ وجلَّ من عملهِ الحقيقيّ

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَاد﴾ [آل عمران : ٣٠]

الوفاء والجحود

قال التلميذُ الناشئُ لشيخهِ الحكيم :

– ودِدْتُ البارحةَ لو كنتُ شاعرا

قال الشيخُ الحكيم مبتسما :

– ولِمَ ؟

قال التلميذُ الناشئ :

– لأُصَوِّرَ بالشعرِ ما ثارَ في نفسي من خواطرَ ومشاعرَ وأنا أسمعُ في مجلسك أخبارَ فلانٍ الذي استقامَ على طريقِ الحقِّ فلم ينحرفْ مع الدنيا إلى يسار أو يمين ، فتخلّى عنه طلابُ الدنيا الذينَ كانوا يلازمونَه ملازمةَ الظِلِّ ، عندما كانتِ المطالبُ والرغائِبُ تُنالُ بملازمته ، وإظهارِ محبّتِهِ ومُناصَرَتِه . وتأمّلتُ كيفَ يتحوَّلُ الصديقُ عنِ الصديق ، والشقيقُ عن الشقيق ، إذا تحوَّلت عنه حُظوظُ الدنيا ، و لم يَعُدْ سبيلاً إلى مكاسبها ، أو أصبحتْ صداقتُه أو أخوَّتُه حائلاً دونَ هذه المكاسب .. لقد فكّرْتُ في هذا البارحةَ فأطلْتُ التفكير ، وتأمّلْتُ فأطلْتُ التأمُّل ، وتأثَّرْتُ لانعدامِ الوفاءِ فغلَبني التأثر ، فتمنَّيْتُ في تلك اللحظةِ لو كنتُ شاعراً لأُعَبِّرَ عمَّا يَعْتَلِجُ في نفسي

قال الشيخُ الحكيم مازحا :

– فقد كَفَاكَ بعضَ ذلك أبو فراسٍ عندما قال :

تَناســـــانِيَ الأصْـــــحَابُ إلاّ عِـــــصابةً ... سَـــــتَلْحقُ بـــــالأُخْرَى غَـــــداً وتَحـــــوُلُ
وَمَنْ ذا الــذي يَبْقــى علــى العَهْــد إنَّهُــمْ ... وإنْ كَثُـــــرتْ دعـــــواهُمُ لَقليـــــلُ
أُقلِّـــــبُ طَـــــرْفي لا أَرى غـــــيرَ صـــــاحبٍ ... يَميـــــلُ مـــــع النَّعْمـــــاءِ حَيْـــــثُ تَميـــــلُ

قال التلميذُ الناشئ :

– فهل أنتَ على رَأْيِ أبي فراسٍ في هذه الأبيات ؟

قال الشيخُ الحكيمُ جادّا :

– كلاَّ يا بُنَيّ! إنّ الوفاءَ موجودٌ في هذه الدنيا ، وإن كان لا يَتَمَثَّلُ في كلّ الناس ، ولا يكونُ على درجةٍ واحدةٍ في كلّ النفوس .. ولَئِنْ رأيتُ مَنْ يخونُ العهدَ فقد رأيتُ من يُقيمُ على العهد ، ولَئِنْ عرفتُ من يميلُ مع النعماءِ فقد عرفتُ أيضاً من يُضَحِّي من أجلِ الحقِّ والأُخُوَّةِ والوفاءِ بالنعماء .. وتجاربُ الزمنِ هي التي تكشفُ هؤلاءِ وهؤلاء .. فلا يَغْلِبَنَّكَ اليأسُ على الأمل ، والتشاؤمُ على التفاؤل ، فالخيرُ على درجاتِهِ المختلفةِ باقٍ إلى يومِ القيامةِ . والمسلمُ الحقُّ بعدَ ذلك كلِّه ، لا يُغَيِّرُهُ ولا يُخْرِجُهُ عن نَهْجِهِ وفاءٌ ولا جُحود ، ولا يطلبُ ولا ينتظرُ جزاءً إلاّ من الله عزَّ وجلَّ ، ولا ينثني ولا يتوقّفُ عن غايتِهِ ولا تخلّى عنه سائرُ الناس .